اغتيال الملك بطليموس و نهاية مملكة موريطانيا

د. عبد القادر بوعزم

كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية

جامعة وهران

قررت روما بعد انتصارها في الحرب البونية الثالثة (149 ق.م- 146 ق.م) التي انتهت بتخريب مدينة قرطاجة، تأسيس أول مقاطعة رومانية في بلاد المغرب " مقاطعة إفريقيا الرومانية"، و بذلك أصبحت جميع ممتلكات الدولة البونية التي كانت لا تزال تحت سيادة قرطاجة و المدن التابعة لها قبل الحرب، ملكا للدولة الرومانية أي مجلس الشيوخ و الشعب الروماني و صارت مجالا مفتوحا للاستعمار، و قد تم تأجير أغلب الأراضي الزراعية الخصبة إلى مواطنين رومان من الطبقة الأرستقراطية و خاصة أعضاء مجلس الشيوخ.

و عندما انتخب كايوس جاراكوس نقيبا شعبيا سنة 124 ق.م، أصدر قرارا بتأسيس مستعمرة رومانية في نفس المكان الذي كانت فيه قرطاجة البونية، و الذي زرع بالملح بعد تخريبها و أعلن منطقة ملعونة حرم البناء فيها، فوزع الأراضي الزراعية على ستة آلاف (6.000) مواطن روماني، كانت حصة كل واحد منهم حوالي مائتي يوجيرا (50 هكتارا)، لكن خطة إعادة بناء المدينة لم تنجح و تمت تصفية إصلاحات كايوس جاراكوس الزراعية بعد معارضة مجلس الشيوخ و قتل سنة 122 ق.م، و بعد ذلك صدر قانون سمح للذين حصلوا على عقود ببيع أراضيهم، فوجد الكثير من الأغنياء الرومان فرصة لاستثمار أموالهم في شراء الأراضي الزراعية الإفريقية الخصبة.

كما يظهر أن روما أهملت زراعة القمح في أغلب أقاليم شبه الجزيرة الإيطالية خلال الحروب الأهلية، و أصبحت تعتمد على استيراده من المقاطعات خاصة من مقاطعتي مصر و إفريقيا، و نظرا لأهمية هذه الأخيرة و شهرتها بالإنتاج الزراعي و خاصة القمح فقد أصبح التهافت على أراضيها كبيرا و أصبح الاستعمار الروماني يسير بخطى سريعة، فبعد نهاية حرب يوغرطة سنة 105 ق.م، و بعد انتصار ماريوس قام سنة 100 ق.م بتوسيع أراضي زراعية واسعة في مقاطعة إفريقيا على جنوده المسرحين الذين كان قد وعدهم بها لتشجيعهم على الدخول في جيشه[1].

و يمكن اعتبار عهد يوليوس قيصر فاتحة عهد جديد في تاريخ شمال إفريقيا، فبعد الانتصار الذي حققه على أعدائه أنصار بومبي في معركة تافيسوس (رأس ديماس) النهائية و التي انتحر على إثرها حليفهم يوبا الأول ملك نوميديا سنة 46 ق.م، اتخذ قرارين هامين الأول، إلغاء مملكة نوميديا التي كان يحكمها الملك يوبا الأول و تأسيس مقاطعة رومانية جديدة، مقاطعة إفريقيا الرومانية الجديدة إلى جانب المقاطعة القديمة التي أصبحت تحمل اسم " مقاطعة إفريقيا الرومانية القديمة"، و القرار الثاني هو تسليم الجزء الشمالي الغربي من مملكة نوميديا إلى مرتزقة القائد سيتيوس الذي ساعده خلال الحرب فأقاموا فيه إمارة حملت إسمهم، (إمارة السيتيين)، شملت مدنا مشهورة هي قسنطينة (Cirta)، ميلة (Milev)، القل (Chullu)، سكيكدة(Rusicade)، و استولوا على الأراضي الزراعية لهذه المدن[2].

و مع بداية العهد الإمبراطوري ازداد التهافت على الأراضي الإفريقية خاصة في عهدي الإمبراطور أغسطس و الإمبراطور تيبيريوس و ذلك لزيادة الحاجة لإنتاج الحبوب و ضمان تمويل مدينة روما و الجيوش المرابطة على حدود الإمبراطورية لأنه أصبح من يستطيع إطعام سكان هذه المدينة يحكمهم، و من يفشل في ذلك لا يبقى في الحكم يوما واحدا، حيث لم يصبح المواطنون الرومان المقيمون في مدين روما- و كان عددهم كبيرا- مهتمين بالحقوق السياسية، لقد قبلوا ما طرأ من تحول تدريجي في مصير

مجلس العامة في عهد أغسطس حتى أصبح مجرد صورة لا روح فيها و لم يعترضوا عندما قرر خليفته تيبيريوس تعطيل هذا المجلس الذي أصبح إجراء شكلي، و لكنهم كانوا مصرين دائما على حقهم الذي حصلوا عليه قبل ذلك خلال الحروب الأهلية و هو أن تتكفل الحكومة بإطعامهم و الترفيه عنهم، و لم يجرأ أي أحد من الأباطرة بمن فيهم أغسطس مس هذا الحق المقدس لعامة الشعب الروماني و كل ما فعلوه هو محاولة تقليص عدد المنتفعين و المستحقين وبذلوا كل جهودهم في إيجاد خير الطرق و الوسائل و أدقها لحسن توزيع الغلال عليهم[3].

و عندما انتصر أغسطس على جميع معارضيه أصبحت قوته ترتكز على دعامتين السلطة البروقنصلية و السلطة التربيونية الأولى منحته قيادة الجيوش، و أصبح يتمتع بالسلطان العسكري الأعلى، و الثانية منحته حق تمثيل الشعب الروماني مع التمتع بحق الاعتراض " الفيتو " على قرارات مجلس الشيوخ و الحكام مثل القناصلة، و هكذا أصبح يتعامل مع هذه الهيئات من مركز القوة، و عندما استتب له الأمر خاصة بعدما صار سيدا على إفريقيا قام سنة 29 ق.م بتأسيس مستعمرة جديدة في قرطاجة ليس خارج المنطقة الملعونة بل في قلب المكان الذي كانت العاصمة البونية مشيدة فيه من قبل، ذلك لأنه أصبح يشعر بأن له من القوة ما يستطيع به تحدي العواطف الدينية التي لم يستطع كايوس جاراكوس تجاوزها من قبل، و لم تقتصر جهوده على قرطاجة فقط لأن ذلك كان بداية لسياسة استعمارية جديدة سلكها سواء في المقاطعة الرومانية أو المملكة الموريطانية[4].

بالفعل لقد قام بتوحيد أراضي المقاطعتين الرومانيتين القديمة و الجديدة بالإضافة إلى أراضي إمارة السيتيين و أصبحت جميعها مقاطعة واحدة في التقسيم الإداري الذي أعده سنة 27 ق.م و هي "مقاطعة إفريقيا الرومانية البروقنصلية السيناتورية" عاصمتها قرطاجة[5].

أما في مملكة موريطانيا فبعد موت الملك بوغود حليف أنطوان سنة 38 ق.م، أصبح بوكوس الثاني حليف أكتافيوس ملكا على كامل أراضي مملكة موريطانيا الممتدة من المحيط الأطلسي غربا إلى حدود المقاطعة الرومانية شرقا (الواد الكبير)، و بعد موته سنة 33 ق.م قام الرومان بضم أراضي مملكته و بقيت طيلة ثماني سنوات (33 ق.م- 25ق.م) تحت الإدارة العسكرية التابعة لأكتافيوس الذي قرر سنة 25 ق.م التراجع عن هذه السياسة فنصب الأمير النوميدي يوبا الثاني[6]، ملكا عليها كما جاء في كتابات ديون كاسيوس الذي يقول : " سلم أغسطس إلى يوبا (يوبا الثاني) ممتلكات بوكوس و ممتلكات بوغود و قسما من أراضي الجيتول تعويضا له عن ممتلكات آبائه التي أصبح جزء كبير منها تحت سلطة الامبراطورية"[7].

و قد اغتنم الفرصة قبل تعيين هذا الأمير تأسيس في موريطانيا التي كانت تابعة لبوكوس الثاني تسع مستعمرات، ستة ساحلية بالغرب من موانئ قديمة و هي جيجل (Igilgili)، بجاية (Saldae)، أزفون (Rusazus)، دلس (Rusucuru)، قوراية (Cunugu)، و تنس (Cartenae)، و ثلاثة في الداخل هي تيكلات (Tubusuctu)، 90 كلم جنوب غرب مدينة عنابة، حمام ريغة (Aquae Calidae)، و مليانة (Zuccabar)، كما أسس غرب مملكة بوغود السابقة ثلاث مستعمرات هي أرزيلة (ZILIS) على سواحل المحيط الأطلسي بين طنجة، العرائش و بابا (Babba Campastris)، قرب مدينة وزان و باناسا (Valentia) قرب مدينة القصر الكبير[8].

هذه المستعمرات لم تكن لقدماء المحاربين المسرحين في جيش أغسطس فقط، بل كانت لكثير من سكان شبه الجزيرة الايطالية الذين فقدوا أراضيهم خلال الحروب الأهلية بالإضافة بدون شك إلى عدد كبير من الأغنياء الذين أرادوا استثمار أموالهم في الأراضي الزراعية الإفريقية ذات الخصوبة و اللذين كانت الدولة دائما سريعة الاستجابة و تقوم بتشجيعهم و مساعدتهم، لأن استثمار الأموال في الأراضي الزراعية، يعني كثرة الإنتاج و ضمان كميات كبيرة من الحبوب خاصة القمح لتمويل سكان مدينة روما و الجيوش المحاربة على حدود الإمبراطورية.

هذه الاعتبارات هي التي دفعت الإمبراطور أغسطس ثم من بعده الإمبراطور تيبيريوس إلى بذل جهود حربية كبيرة لتوسيع حدود ممتلكات الدولة الرومانية و إسكان الكثيرين من الذين شاركوا في الهجرة الزراعية الكبرى من إيطاليا بعد نهاية الحروب الأهلية، و قد تم تأسيس هذه المستعمرات في مواقع طبيعية إستراتيجية هامة أحسن اختيارها لتكون مراكز إشعاع للاستعمار الروماني و هذا ما كان ينبئ على ما يظهر بإلحاق البلاد بالحكم الروماني المباشر[9].

لقد أصبحت بلاد المغرب منذ سنة 25 ق.م مقسمة إلى وحدتين سياسيتين رئيسيتين، مقاطعة لإفريقيا البروقنصلية عاصمتها قرطاجة يحكمها حاكم روماني يعينه مجلس الشيوخ بروقنصل بيده السلطة المدنية و السلطة العسكرية يساعده موظفون كبار من بينه القائد العسكري ليغاتوس (Lugatus) قائد كتيبة أغسطس الثالثة التي أسسها أغسطس و مهمتها الدفاع على الممتلكات الرومانية داخل المقاطعة تساعدها فرق من الجند المساعد، و غرب حدود هذه المقاطعة مملكة موريطانيا عاصمتها، قيصرية (شرشال الحالية)، يحكمها ملك تابع و خاضع لسلطة الإمبراطور يوفر عناء الحكم المباشر لإقليم عمت فيه الثورات منذ تجربة أكتافيوس و محاولته حكم هذا الإقليم عن طريق حكام عسكريين (ما بين 33 ق.م و 25 ق.م) و حتى بعد تعيين يوبا الثاني ملكا على هذه المملكة لم تنقطع الثورات التي كان أهمها دون شك ثورة الجيتول (03 م -06 م) و التي يلخص أسبابها ديون كاسيوس فيم يلي : " بعد غضب الجيتول على سياسة الملك يوبا و رفضهم الخضوع لسلطة الرومان مثله، ثاروا ضده و عاثوا في المناطق المجاورة لإقليمهم فسادا، و قتلوا كثيرا من القادة العسكريين الرومان اللذين قادوا المعارك ضدهم، و باختصار زادت قوتهم و عظم شأنهم إلى غاية مجيء كورنيليوس كوسوس الذي هزمهم و أخضعهم فحصل على شرف النصر و لقب بالجيتولي."[10]، و قد شاركت قوات الملك يوبا الثاني في القضاء على هذه الثورة و ربما كانت القوة الرئيسية في تحقيق النصر، يظهر ذلك من خلال النقود التي صكها هذا الملك و عليها صورة إلهة النصر خلال السنوات06 م، 07م و 08 م[11].

أسباب بداية حرب الجيتول واضحة و هي غضبهم على سياسة الملك يوبا الثاني التي لم تكن تختلف عن سياسة الرومان، و عدم قبولهم لهذه السياسة و نتائجها هو الذي دفعهم إلى القيام بهذه الثورة و قد التحق بهم جيرانهم المزالمة و لأول مرة يذكر مقتل قادة رومان في هذه الحروب و كثرة عددهم يدل على وجود عدد كبير من الفرق العسكرية التي شاركت في قمع هذه الثورات، لكن من هم هؤلاء القادة الذين قتلوا حسب ديون كاسيوس؟ تبقى ظروف قتلهم غامضة و غير واضحة نظرا لعدم وجود أجوبة عنها في المصادر القديمة[12].

و مع انتشار النشاط الاستعماري الذي ميز عهد أغسطس و من بعده عهد تيبيريوس بدأ الأفارقة يشعرون بهذه التغيرات الجديدة، فالوجود الروماني لم يبق مجرد ظاهرة بعيدة خارجية لا تهم إلا فئة قليلة من الأفارقة بل أصبح بالعكس حقيقة لا يمكن تجاهلها، كثرة المستعمرات التي أسسها أغسطس و اختيار مواقعها و زيادة عدد المعمرين و نشاطهم سواء كانوا تجارا أو فلاحين كل هذا أصبح يوحي أن خطة الرومان تستهدف الاستيلاء على كامل البلاد، و عاجلا أو آجلا سيضطر السكان الذين أصبحوا يشعرون بالخطر إلى تحديد مواقفهم تجاه الرومان، إما الخضوع و إما محاولة الاندماج و إما المقاومة، و ما يمكن ملاحظته هو أن نهاية عهد أغسطس فتحت مرحلة جديدة في إفريقيا من جهة الرومان أصبحوا يوسعون نطاق استعمارهم في كل مرة و من جهة أخرى هذا التحدي أدى إلى تضامن شعوب المنطقة للوقوف في وجه هذا الزحف الاستعماري، لقد اتخذ أغسطس قرارين هامين الأول هو إقامة معسكر كتيبة أغسطس الثالثة في حيدرة (Ammaedara) التي تقع في الجنوب الشرقي لإقليم شعب المزالمة و لو أن تاريخ إقامة هذا المعسكر غير معروف بالضبط لكنه يكون بالتأكيد بعد نهاية حرب الجيتول سنة 06 م، و القرار الثاني هو شق طريق يربط بين هذا المعسكر و مدينة قابس (Tacapé) مرورا بمدينة قفصة (Capsa)، كان ذلك سنة 14 م و هذا ما أدى إلى وضع يد السلطة الرومانية الفعلية على جزء كبير من إقليم المزالمة اللذين كانوا قد رأوا جزء كبيرا من أراضيهم قد أخذ منهم في السابق و وجدوا أنفسهم الآن محرومين من جزء آخر، و أجبروا على حمل السلاح للدفاع عن أراضيهم، بدأت

الحرب سنة 17 م، و سيطرت عليها شخصية تاكفاريناس الذي عين قائدا لشعب المزالمة، و يظهر منذ البداية أن الإعلان عن الحرب لم يكن صدفة بل سبقته تحضيرات سياسية و تنظيمات عسكرية محكمة، فالمزالمة[13] لم يدخلوا الحرب بمفردهم، بل تحالفوا مع جيرانهم في الغرب الموريين بقيادة مازيبا (Mazippa)، و جيرانهم في الشرق الكينيثيين (Cinithii)، فتكونت جبهة تمتد من حدود جنوب مملكة يوبا الثاني إلى منطقة سرت الصغرى، و لأول مرة حاول الأفارقة استعمال خطط عسكرية تتماشى و ظروف المعارك و أسلحة و تنظيم وحدات عسكرية متنوعة، و هذا ما أعطى إلى هذه الحرب التي دامت سبع سنوات (17م-24م) أهمية خاصة في تاريخ المقاومة ضد الاستعمار الروماني و هذا ما دفع بدون شك المؤرخ الروماني تاسيت إلى إعطاء عروض بانتظام عن سير المعارك في حولياته (Annales)[14]، هذه المحاولة للوقوف في وجه التوسع الروماني فشلت و ذلك بمقتل تاكفاريناس لكن هذا لم يحل المشكل لأن استعمار إقليم المزالمة لم يتم إلا بعد قرن كامل مليء بالثورات التي لم تنقطع[15].

من المعروف أن الإمبراطور أغسطس بعدما استبد له الأمر، عرض على مجلس الشيوخ – بعد تطهيره من جميع المعارضين طبعا- في 13 يناير عام 27 ق.م التنازل عن جميع السلطات و الصلاحيات للمجلس و الشعب الروماني لكن قراره هذا رفض لأنه حرك الخوف في النفوس بدلا من الفرح، و تمت التسوية فقسمت ولايات الإمبراطورية إلى ولايات سيناتورية يحكمها مجلس الشيوخ بتعيين حكام عليها إما برتبة بروقنصل أو برتبة بروبريتور و ولايات إمبراطورية يحكمها الإمبراطور عن طريق وكلائه، و يظهر أن أغسطس وضع تحت سلطة الإمبراطور الولايات التي كانت ترابط بها الكتائب العسكرية و التي كانت تمثل جبهات الحرب الرئيسية للإمبراطورية، و بهذا ركز في يد الإمبراطور السلطة العسكرية و قد عوملت مقاطعة إفريقيا معاملة خاصة في هذا التقسيم، حيث أصبحت مقاطعة سيناتورية قنصلية و خلافا للمقاطعات السيناتورية الأخرى كانت ترابط بها كتيبة عسكرية هي كتيبة أغسطس الثالثة، بالإضافة إلى فرق من الجند الإضافي، و كل هذه القوات أصبحت تحت سلطة البروقنصل حاكم المقاطعة الذي كان تابعا لسلطة مجلس الشيوخ، و هذا مخالف للاعتقاد السائد بأن أغسطس قرر إسناد حكم المقاطعات الآمنة التي ترابط بها كتائب عسكرية إلى مجلس الشيوخ، و لكن هذه الوضعية الخاصة بإفريقيا كان لها مبررها، في نفس السنة التي تم فيها التقسيم – و ربما قبله و لكن بقليل- قرر أغسطس توحيد أراضي المقاطعتين (إفريقيا القديمة و إفريقيا الجديدة)، و أراضي إمارة السيتيين، و بهذا حقق هدفين أولهما إرضاء مجلس الشيوخ الذي كان لا يمكنه التخلي عن مقاطعة إفريقيا القديمة، حيث كان لكثير من أعضائه ممتلكات واسعة قديمة و ثانيهما ترك لنفسه صلاحية التدخل في حالة الضرورة العسكرية لاختيار البروقنصل، و هذا ما حدث بالفعل في عهد الإمبراطور تيبريوس خلال حرب تاكفاريناس[16].

بقي نظام مقاطعة إفريقيا على هذه الحالة طيلة عهدي الإمبراطور أغسطس (27 ق.م- 14 م) و الإمبراطور تيبريوس (14م-37م)، و عندما تولى كاليقولا عرش الإمبراطورية سنة 37م قرر ضم أراضي مملكة موريطانيا إلى ممتلكات الدولة الرومانية و الشعب الروماني، لأن تسوية الإمبراطور أغسطس لم توضع لتستمر طويلا، مملكة تابعة رغم خضوع ملوكها لم تكن إلا حلا مؤقتا يمكن وضع حد له حين تصبح الأمور أقل خطرا و عندما تصبح الحاجة الاقتصادية ضرورية إلى ذلك، و قد أصبح في نظر الرومان أن مداخل مملكة موريطانيا في حالة الاستيلاء عليها يمكن أن تساهم في حل الكثير من المشاكل الاقتصادية و أعباء عن حدود الإمبراطورية لهذا رأى هذا الإمبراطور أن الوقت أصبح مناسبا لإلغاء العرش الموريطاني الصوري و تعويضه بإدارة رومانية تسهر على خدمة مصالح الدولة الرومانية و الشعب الروماني خاصة و أن الملك بطليموس الذي كان يحكم مملكة موريطانيا لم يكن له وريث و بعد التخلص منه يصبح من حق الإمبراطور إرث جميع ثرواته فأراد كاليقولا الذي كان يبحث عن الثروة بأي وسيلة أن يكون هذا الإمبراطور، و تحضيرا لهذا القرار اتخذ قرارا آخر قبله و هو نزع السلطة العسكرية من يد حاكم مقاطعة إفريقيا البروقنصلية الذي كان يعين من طرف مجلس الشيوخ، و أسندها إلى قائد عسكري خبير بالشؤون الحربية (Legatus) يعينه الإمبراطور و يكون مسؤولا أمامه فقط.

و هناك مصدران هامان عن هذا القرار الأول، هو ما جاء في كتابات المؤرخ تاسيت[17] : " الكتيبة المقيمة في إفريقيا و فرق الجند الإضافي المكلفة بحراسة حدود الإمبراطورية كانت في عهد الإمبراطور أغسطس و الإمبراطو تيبيريوس، تحت سلطة البروقنصل، و عندما جاء كايوس قيصر (كاليقولا) انتزع قيادة الكتيبة من يد البروقنصل فسلمها إلى حاكم عسكري (LEGATUS) عينه لهذا الغرض، ذلك لأنه كان قلقا و متخوفا من ماركوس سيلانوس الذي عين لحكم إفريقيا و وزعت الصلاحيات بين الحاكمين بالتساوي، و لكن مهام كل واحد لم تحدد بالتدقيق و هذا ما أدى إلى حدوث خلافات دائمة، كان يغذيها التنافس الشديد، لكن سلطة الحاكم العسكري كانت دائما أعلى و هذا راجع إلى طول مدة حكم هؤلاء كما أن قوة التنافس تكون دائما كبيرة عند المأمورين أما البروقنصليون اللامعون، فأغلبهم كان يهتم براحته أكثر من اهتمامه بالسلطة."

أما الثاني فهو نص للمؤرخ ديون كاسيوس[18]: " في الوقت الذي أسند فيه حكم مقاطعة إفريقيا إلى لكيوس بيزون ابن بلانكينا و كايوس بيزون، خاف (كاليقولا) من أن يدفع الغرور بيزون إلى القيام بحركة انفصالية خاصة و أنه أصبح يقود قوة عسكرية كبيرة تتكون من مواطنين رومان و أجانب فقام بتقسيم الولاية إلى قسمين و أسند السلطة العسكرية و حكم النوميديين المقيمين بمنطقة المراكز العسكرية إلى حاكم آخر."

إن أهم شيء يمكن استنتاجه من هاذين النصين، هو اتفاق كل من تاسيت و ديون كاسيوس على السبب الذي دفع بكاليقولا إلى نزع السلطة العسكرية من يد البروقنصل – سيلانوس حسب تاسيت، إيزون حسب ديون كاسيوس– و ذلك خوفا من اكتسابه لواء الجيش لشخصه بحكم سلطته التي كانت تخول له القيادة العسكرية، فيثور ضد الإمبراطور و يستقل بولاية غنية اقتصاديا فيحرم روما من مصدر هام للقمح، هذا ما يؤدي إلى عواقب خطيرة.

صحيح أن حاكم إفريقيا كان من فئة البروقنصليين أي من القناصل السابقين و هي الفئة الأرقى و الأكثر أهمية من الناحية السياسية و الأكثر خطورة من الناحية العسكرية، خاصة و أن الجيوش التي كانت ترابط بإفريقيا كانت مدربة على القتال نظرا للحروب التي كانت تخوضها باستمرار ضد السكان الأصليين، و لهذا كان من الحيطة للإمبراطور أن يأخذ زمام الأمور بيده حتى يتجنب كل ما يمكن أن يحدث، و لكننا نعرف أنه منذ بداية العهد الإمبراطوري كان للأباطرة في الولايات التابعة لمجلس الشيوخ مندوبون عنهم، أو وكلاء شخصيون يشرفون على إدارة أملاكهم الخاصة و كان هؤلاء المندوبون بمثابة العيون و الآذان للإمبراطور في هذه الولايات، حيث كانوا يطلعون على كل ما كان يجري هناك، و كلما ازداد عدد هؤلاء المندوبين نتيجة لزيادة الأملاك الإمبراطورية و جباية الضرائب غير المباشرة التي أصبحت من بين مهامهم، كلما أصبح إشراف الأباطرة على الحكام من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ فعالا، هذا من جهة، و من جهة أخرى كلما زاد نصيب الأباطرة لتعيين أعضاء مجلس الشيوخ الجدد و الاستغناء عن القدامى منهم – و ذلك عن طريق تقديم التزكية للمرشحين و مراجعة ثبت الأعضاء بين الحين و الآخر– كلما كان رأي الأباطرة حاسما في موضوع اختيار أعضاء مجلس الشيوخ لتولي حكم الولايات، و الحقيقة أن حكام الولايات كانوا جميعا منذ بداية القرن الأول ميلادي معينين فعلا من طرف الإمبراطور، إما بطريقة مباشرة على الولايات الإمبراطورية و إما بطريقة غير مباشرة على الولايات السناتورية، و على هذا فما فائدة الخلافات بينهما؟ لاسيما إذا كانت الخلافات تؤدي حتما إلى خلافات بين الإمبراطور و مجلس الشيوخ[19].

إن الأسباب التي أدت بكاليقولا إلى إعادة النظر في نظام المقاطعة الرومانية، هي أسباب إستراتيجية، لقد قرر هذا الإمبراطور تعيين قائد عسكري خبير بالشؤون الحربية على رأس القوات الرومانية الموجودة بالمنطقة و هذا استعدادا و تحضيرا لبسط نفوذ الاستعمار الروماني المباشر على كامل بلاد المغرب، حيث قام باغتيال الملك بطليموس سنة 40 م، و ألحق مملكته بممتلكات الإمبراطورية و بهذا وضع حدا لنظام الحماية الرومانية على مملكة موريطانيا.

وهكذا أصبحت قيادة الجيوش الرومانية كلها بيد الإمبراطور دون استثناء، و في سنة 40 م قرر قتل الملك بطليموس إبن يوبا الثاني الذي كان أبوه قد أشركه في السلطة ربما منذ سنة 21 م حسبما يظهر من خلال قطع نقدية تشير إلى السنة الأولى من حكمه[20]، ثم أصبح الملك الوحيد بعد موت أبيه سنة 23 م أو بداية سنة 24 م، فأرسل قوات عسكرية كبيرة لتدعيم قوات حاكم مقاطعة إفريقيا البروقنصلية سنة 24 م كورنيليوس دولابيلا (Cornelius Dolabella) و بفضل هذه المساعدات استطاع تحقيق النصر في معركة نهائية على تاكفاريناس و خلص الرومان من حرب كلفتهم الكثير و هذا هو سبب إرسال مجلس الشيوخ في روما وفد إلى الملك بطليموس حسب عادة قديمة، كما يقول المؤرخ تاسيت و قدم له هدايا تتمثل في عصا العاج و العباءة المزركشة (رمز الملكية) و ناداه بالملك الحليف و الصديق للشعب الروماني[21].

لقد تابع بطليموس سياسة والده يوبا الثاني طيلة فترة حكمه (23 م- 40م) و بذل جهدا كبيرا لتمهيد البلاد و تحضيرها للاستيطان الروماني حيث قام بتجديد الوجه الحضاري لمدن المملكة و توفير الأمن للجاليات الرومانية سواء كانوا تجارا أو موظفين و حماية المستعمرات التي أقيمت من قبل سواء الساحلية أو الداخلية و تقديم المساعدات العسكرية إلى الرومان كلما اقتضى الأمر لذلك، و رغم كل هذه الخدمات التي قدمها للدولة الرومانية فإن الإمبراطور كاليقولا قام بقتله سنة 40 م في مدينة ليون عندما دعاه إلى حفل أقامه على شرف الملوك الحلفاء و الأصدقاء و كان بطليموس من بينهم، و بعد استقباله استقبالا لائقا دبر له مؤامرة و قتله لا لشيء سوى لأنه دخل إلى مكان الحفل يرتدي عباءة براقة فجلب أنظار الحضور كما جاء في كتابات سويتون (Suetone) و ديون كاسيوس[22].

قد تكون الغيرة هي السبب المباشر في هذا الاغتيال لكن الدوافع الحقيقية تكمن في أسباب أخرى حاول المؤرخون البحث عنها و لقد اختلفت آراءهم و افتراضاتهم، فحسب رأي م روستوفتزاف (M.Rostoftzeff) فإن الرومان أصبحوا في حاجة ماسة إلى أراضي جديدة يحلون بها مشاكل الجنود المسرحين و كذلك تمويل الجيوش المحاربة و إطعام سكان مدينة روما[23]، و يرى بيتي (P.Petit) أن الخلاف كان خلافا دينيا حول رئاسة كهانوت الإلهة إيزيس، و هي مهمة ورثها بطليموس و كان كاليقولا يريد أخذها منه، فبنى لهذه الإلهة معبدا في ساحة مارس بروما و أدرج أيام الاحتفالات بعبادتها في جدول أيام الاحتفالات الدينية الرومانية[24].

و هناك من يرى أن السبب هو التخلص من منافس في الشهرة و الثروة و كان الإمبراطور كاليقولا بارعا في التخلص من المنافسين و أخذ ثرواتهم بجميع الوسائل[25]، أما المؤرخ كوتولا (T.Kotula) فيرى أن الخلاف الديني لم يكن إلا سببا من بين أسباب الخلافات و يفترض سببا آخر لا يقل أهمية عن الأسباب السابقة و هو الخلاف حول المحررين[26].

أما فور (G.C.Faur) فينتقد هذه الفرضية و يأتي بأسباب أخرى أهمها محاولة الملك بطليموس الاستقلال عن الإمبراطورية و ذلك عندما صك نقودا ذهبية خلال سنتي 38-39م أو ربما خوفا من رؤيته يتزعم مؤامرة ضد الإمبراطور و يتولى العرش مكانه أي أن السبب هو التنافس داخل الأسرة بين حفيدين للقائد أنطوان لأن كاليقولا هو ابن جيرمانيكوس (Germanicus) ابن دروسوس (Drussus) و أنطونيا بنت أنطوان و أكتافيا أخت أغسطس، أما بطليموس فهو ابن يوبا الثاني و كليوباترا سيليني بنت أنطوان و كليوباترا ملكة مصر [27]، و هذا ما يبين أن بطليموس هو كذلك كان ينتسب إلى فئة الطبقة الأرستقراطية الرومانية و مصيره كان لا يختلف عن مصير النبلاء الرومان الآخرين الذين أعدموا بسبب شهرتهم و ثرواتهم و ظهورهم[28]، و كما قال تاسيت : " الذي كان يظهر بثروته و مسكنه و طريقة عيشه كان معظما و مشهورا، لكن بعد أحداث القتل الفضيعة و الاغتيالات الناجمة عن الشهرة، الناجون رجعوا إلى التعقل و الحكمة"[29].

و من خلال هذه الآراء المختلفة نستخلص أن هذه العوامل كلها سواء كانت الشهرة، أو الخلاف الديني أو الصراع داخل الأسرة الواحدة أو محاولة الإمبراطور كاليقولا التخلص من الملك بطليموس للاستيلاء على ثروته، كل هذه الأسباب دفعت

الرومان خاصة أنصار السياسة التوسعية الذين كانوا ينادون دائما بإنهاء العرش الموريطاني حتى و إن كان صوريا، فوجد الإمبراطور كاليقولا السبب المباشر عندما اعتبر دخول الملك بطليموس إلى الحفل، يرتدي العباءة الفاخرة إهانة له فأمر بقتله و حقق رغبة الرومان الاستعمارية التوسعية، و قد يكون هذا الحفل الذي نظم على شرف الملوك الحلفاء و الأصدقاء غرضه تنفيذ خطة كان الإمبراطور قد رسمها من قبل، وقتل ملك أمام أصحاب العظمة و الشهرة ليكون عبرة للذين يريدون الظهور بالعظمة و الشهرة أكثر من الإمبراطور نفسه.

سكان بلاد المغرب لم ينتظروا طويلا، لقد قام أحد المعتقين الذين كانوا بدون شك غير راضين على ما قام به الإمبراطور و جمع حوله الكثيرين من الذين غضبوا و استاءوا من هذا العمل، و حاول الانتقام لسيده المغتال، هذا حسب ما ورد في كتابات بلين (Pline)[30]. هذا المعتق هو أيديمون الذي كان يعيش في بلاط الملك و ينعم بحياة البذخ و الطرف، و قد يكون من أصل إغريقي كما يظهر من اسمه، أو ربما كان إفريقي الأصل و هذا الاسم هو اسم الشهر حمله بعد عتقه، حيث توجد أمثلة كثيرة لأسماء إغريقية حملها عبيد أو معتقون غيروا أسماءهم بعد عتقهم [31]، و يرى لوقلاي (M.Leglay) أن أيديمون تزعم هذه الثورة ضد روما لأنه كان يريد السيطرة على مملكة موريطانيا التي كان على يقين أنه سوف يحرم من نعيمها، فجمع حوله كل الذين أصبحت مصالحهم مهددة و شعروا بخطر الإدارة الرومانية الجديدة[32].

أما بن عبو (M.Benabou) فيذهب إلى أبعد من ذلك و يرى أنه من الواجب البحث عن عوامل و أسباب أخرى لا تتوقف عند حد المصالح الشخصية و يقول : " إن أيديمون لم يكن في استطاعته القيام بحرب طويلة و مكلفة ضد أكبر قوة عسكرية في ذلك الوقت، لو لم يكن على يقين من مساعدات القبائل الموريطانية، و أن هذه الحرب كانت تعبر عن انشغالات كل الذين أصبحوا يتطلعون للآفاق المستقبلية، فرأوا في الإدارة الرومانية الجديدة التي سوف تعوض الإدارة الملكية السابقة التي كانوا قد تعودوا عليها إدارة أكثر حدة تتدخل في شؤونهم الخاصة و تفرض عليهم أنظمة جديدة، لم يتعودوا عليها مثل التدخل في النظام الضريبي و حرية التنقل و نظام الأفارقة الاقتصادي بصفة عامة [33]. أما لوفو (Ph.Levau)فيرى أنه يجب الأخذ بما جاء في كتابات المؤرخ الروماني بلين بالحرف الواحد أي أن دافع أيديمون إلى هذه الثورة هو الانتقام لسيده الملك بطليموس و حالته هذه لا تختلف عن حالات الكثير من المعتقين المخلصين لسادتهم، لهذا يجب الفصل بين ثورته و محاولته الانتقامية و المقاومة التي قامت بها القبائل الموريطانية المحبة للحرية و الدفاع عن أراضيها[34].

نهاية الثورة التي قام بها أيديمون كانت سريعة، وربما يكون كل شيء قد انتهى قبل اغتيال الإمبراطور كاليقولا و تعيين الإمبراطور كلود أي قبل 24 يناير سنة 41 ميلادي، ولهذا يجب فصل ثورة أيديمون و تمييزها بوضوح عن العمليات و الحملات العسكرية التي قام بها القائد الروماني سيتونيوس بولينوس ضد القائد الموريطاني سالابوس لأن نطاق ثروة أيديمون كان بدون شك محدودا، لأن من غير المعقول أن يتزعم أحد المعتقين الذين كانوا يعيشون في بلاط الملك بطليموس الذي كان يعيش تحت الحماية الرومانية، ثورة مسلحة للدفاع عن حرية و أراضي مملكة موريطانيا[35]، و الدليل على ذلك، فإنه لم يجد أنصارا لحلفاء كثيرين حتى في أوساط المعتقين الملكيين الطبقة الأرستقراطية التي كانت تعيش في المدن لأن بعض هؤلاء ساعد السلطة الرومانية الجديدة و حارب ضد أيديمون كما يظهر في نقيشة وجدت في مدينة وليلي (Volubilis) التي جاء فيها أن فاليريوس سيفيروس ابن بوستار (M.Valerius Severus fils de Bostar) قاد فرقة عسكرية موريطانية من الجند المساعد في الحرب ضد أيديمون[36]. و قد حاول كوتولا تفسير وجود موريطانيين مقيمين في المدن إلى جانب الرومان ضد أيديمون لأن أنصاره كانوا يمثلون الحضارة و العادات الإغريقية الشرقية، أما سكان مدن موريطانيا الغربية فكانوا متأثرين بالحضارة البونية [37]، لكن هذا التفسير الغريب يحتاج إلى توضيحات أكثر لأنه غير مقنع.

بدون شك مدينة وليلي كانت تربطها علاقات مميزة بالدولة الرومانية ربما كانت مدينة حليفة (Civitas Foederata) و يظهر هذا من خلال حصول الكثير من سكانها على المواطنة الرومانية بصفة فردية، ربما منذ عهد أغسطس و الرومان أعطوا أهمية كبيرة للعلاقات التي كانت تربطهم بهذه المدينة الموريطانية لأسباب عسكرية و إستراتيجية لأن المدينة تقع على مقربة من جبال الأطلس[38] و المساعدات العسكرية التي قدمها سكان مدينة وليلي و قائدهم كانت نتيجتها حصول هذه المدينة على امتيازات كثيرة في عهد الإمبراطور كلود كما يظهر في كتابات ديون كاسيوس[39]، و يفترض دوزانج (J.Desanges) أن مقاومة أيديمون كانت بين سنة 40 م و 25 يناير سنة 41 ميلادي و لا نعرف إن كانت القوات الرومانية التي شاركت في مقاومة هذه الثورة انطلقت من مقاطعة نوميديا أو جاءت من مقاطعة بيتيكا أو ربما من المقاطعتين معا كما أن القائد العسكري الذي قاد العمليات غير معروف ربما يكون ليكينيوس كاسوس (M.Licinius Crassus Frugi)[40].

و بعد عودة الهدوء ربما بعد القضاء على أيديمون، قرر الرومان تنظيم البلاد الجديدة، و هذا ما قام به كلود بدون شك منذ سنة 42 م، حيث قسم أراضي مملكة موريطانيا إلى مقاطعتين يفصل بينهما نهر الملوبة[41]، و هذا على غرار التقسيم القديم : مملكة بوغود في الغرب أصبحت أراضيها تشكل مقاطعة عاصمتها القيصرية – عاصمة المملكة سابقا– يحكم كل مقاطعة حاكم من طبقة الفرسان برتبة وكيل الإمبراطور (Prorurateur eguestre)، و هذا النظام لم يكن جديدا حيث كان مخصصا للمقاطعات الجديدة التي تكثر فيها الثروات و الاضطرابات، و كان الإمبراطور يشرف على إدارتها مباشرة، و من حقه تعيين حاكم واحد على المقاطعتين في آن واحد أو يسلم السلطة العسكرية إلى حاكم المقاطعة فيسمى Procurateur prolegato و الحاكم بهذه الرتبة يقود جيشا من فيالق الكتائب العسكرية.

و هذا ما يدل على أن الحرب لم تتوقف بل امتد نطاقها و زادت حدتها، هذا ما دفع الإمبراطور كلود حسب ما يقول كانيا (R.Cagnat) إلى الاستعانة بفيالق عسكرية من جند الكتائب جاءت من اسبانيا [42]، و قد عاقب حاكم مقاطعة بيتيكا (Silo Umbonius) الذي تهاون في إيصال الإمدادات إلى هذه الجيوش و خاصة الحبوب اللازمة [43]، و قد اضطر القائد العسكري الروماني سويتونيوس باولينوس (C.Suetonius Paulinus) الذي كلف بقيادة العمليات العسكرية سنة 42 م إلى ملاحقة الجيوش الموريطانية إلى غاية جبال الأطلس و في مرة أخرى إلى غاية نهر يسمى " نهر غار" [44] حسب ديون كاسيوس فإن القائد هوزيدوس جيتا (Gn.Hosidius Geta) هو الذي تولى القيادة سنة 42 م، و كانت مهمته قيادة الحرب ضد قائد موريطاني جديد هو صالابوس (Salabus) و اضطر إلى ملاحقته حتى الصحراء ربما كذلك جبال الأطلس[45]، هذه الإشارات رغم عدم وضوحها كلها جدا لأنها تدل على اتساع نطاق المقاومة و رفض المقاومة و رفض كل القبائل الموريطانية سواء في الشمال أو الجنوب الدخول تحت السلطة الرومانية و قامت تدافع عن أراضيها بكل ما أتيت من قوة.و هذه الحملات العسكرية كانت خلال سنوات 41م و 42 م و ربما كذلك سنة 43 م و 44 م، المهم إنه في 25 يناير سنة 45 م كان حاكم مقاطعة موريطانيا الطنجية مقيما في مدينة وليلي هو البرروكيراطور فاديوس سيلير فلافيانوس(**M.Fadius Celer Flavianus Maxmus Prolégatus**)[46]، و الرتبة العسكرية الخاصة « Prolegat » التي حملها هذا الحاكم و الذي يكون ربما أول حاكم لمقاطعة موريطانيا الطنجية قد تدل على وجود عدد من فيالق جيوش الكتائب لا تزال تقيم في المقاطعة تحت قيادته، كما تدل على أن الثروات و المقاومة لا تزال قائمة.

هذا بالنسبة لموريطانيا التي أصبحت فيها الثروات مستمرة و بدون توقف منذ اغتيال بطليموس سنة 40 م، و قد زادت حدتها عندما قرر الرومان التوسع على حساب السكان المحليين و تقسيم أراضيهم إلى مقاطعتين رومانيتين سنة 42 م، أما بالنسبة لباقي أراضي بلاد المغرب فلم يبق سكانها على الحياد حيث ظهرت المقاومة في مناطق الحدود بين نوميديا و موريطانيا و كذلك في إقليم المزالة[47]، و هكذا ظهر بوضوح أن الأقاليم التي كانت لا تزال خارج حدود السلطة الرومانية و التي حاول الرومان التوسع

فيها أو الاستيلاء على أجزاء منها، قام سكانها للدفاع عنها قبل أن يستولي عليها الرومان و نظرا لخطورة الوضع، جمع الإمبراطور كلود السلطتين المدنية و العسكرية في يد حاكم مقاطعة إفريقيا البروقنصلية البروقنصل قالبا (Galba) (44-46 م أو 45-47 م)، و ربما أصبح حاكما على كامل بلاد المغرب و أسندت له مهمة إعادة الأمن و القضاء على ثورات البربر كما جاء في كتابات كل من تاسيت و سويتون [48]، و يظهر أن الرومان غيروا سياستهم في المنطقة بعد عجزهم عن إخضاع السكان بالقوة رجعوا إلى سياسة اللين و المهادنة و أكبر دليل على ذلك هو قيام البروقنصل " قالبا" بتشييد تمثالين في مدينة القيصرية للملكين يوبا الثاني و ابنه بطليموس إلى جانب تمثال للإلهة فينوس (Venus)[49]، هذا ما يدل على أن الرومان كانوا في حاجة إلى التذكير بما قدمه هذان الملكان من خدمات و مساعدات للدولة الرومانية للقضاء على ثورة تاكفاريناس، كما يوضح لنا هذا سياسة الحكام الرومان الاستعمارية، فكلما عجزوا عن تحقيق أغراضهم بأساليب القوة كانوا يلجأون إلى أسلوب اللين و المهادنة لكسب ثقة السكان المحليين على الأقل سكان المدن و خاصة الطبقة الأرستقراطية التي كانت تستفيد دائما و لا يهمها سوى مصالحها الخاصة و قد حصل سكان الكثير من المدن على امتيازات كثيرة في عهد الإمبراطور كلود من بينها المواطنة الرومانية الفردية و كذلك نالت بعض المدن التي ركز عليها الرومان اهتمامهم الخاص ترقية في السلم الهرمي للمدن، حيث أصبحت مدينة طنجة مستعمرة رومانية و كذلك مدينة ليكسوس و القيصرية و أصبحت مدينة وليلي بلدة ربما بلدة رومانية كما حصلت كل من روزو كورو (Rusuccuru) و تيبازة على حقوق البلدة اللاتينية[50]، و بنهاية عهد الإمبراطور كلود سنة 54 تنتهي محاولة من محاولات الرومان التوسعية بالفشل و يعودون إلى تركيز مشروعهم الاستعماري في المناطق الساحلية.

الهوامش

1- M.Benabou, La résistance africaine à la romanisation, Paris, 1976, P.33- 36.

2 – شارل اندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي و البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر 1969، ص. 165-168.

3 – م.روستوفتزاف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية، الاجتماعي و الاقتصادي، ترجمة زكي علي و محمد سليم سالم، القاهرة 1957، ص. 127-128.

4 – شارل اندري جوليان، نفس المرجع، ص. 170-171.

5- P.Petit, La paix romaine, Paris 1967,P.209et suiv.

6- St.Gsell, Juba II, Savant et écrivain, R.Afr., 1927, P. 168-197.

7- Dion Cassius, Histoire romaine, I, 53-26.

8- M.Benabou.op.cit, P. 55-56.

9 – م. روستفزاف، نفس المرجع، ص. 387-389.

10- Dion Cassius, LV, 28, 3-4.

11- J.Mazard, Corpus Nummorum Numidiae Maurétaniaeque, Paris 1955, N 194-198.(P.88-89) et N 282 (P.108).

12- J.Desanges, Un drame africain sous Auguste, Le meurtre du Proconsul L. Cornelius Lemtulus par les Nasamons, ommage à Marcel Reneard, II Bruxelles, 1968.P.197-213.

13- J.Desange, Catalogue des tribus africaine de l'antiquité classique à l'ouest du Nil, Dakar 1962, P. 117-121.

14- Tacite, Annales II, 52 ; 3, 20,21,32,35,73,74 ;VI, 23-26.

15- M.Benabou. op.cit., P. 83.

16- Tacite, Annales, III, 35,17 .

17- Tacite Histoire VI, 48, 3-6.

18- Dion Cassius, LIX, 20,7.

19- M.Benabou, Proconsul et Legat en afrique, Le témoignage de Tacite, Ant. Afri.T.6,1972, P.129-136.

20- J.Mazar, op.cit, P.121, N 375-378.

21- Tacite, Annales, IV, 26.

22- Suetone, Caligula, XXXVI; Dion Cassius, LIX, 25.

23 م.روستوفزاف، نفس المرجع، ص. 127-128.

24-P.Petit, Histoire générale de l'empire romain, Paris 1974, P. 83.
25-Suietone Caligula,XXVIII et XXXIX.
26- T.Kotula, Encore sur la mort de Ptolémée, Roi de Maurétanie, Archéologia, 15, Pologne, 1964, P. 64-71.
27-J.C.Faur, Caligula et La Mauritanie, La fin de Ptolémée, dans Klio, 55, 1973,P.249, 271.
28- Ph.Leveau, Caesarea de Mauritanie, une ville romainne, et ses compagnes, Collection de l'école française de Rome 1984,P.14.
29-Tacite, Annales, III, 55.
30- Pline, H.N, V, 1,11, Texte établis, traduit et commenté par J.Desange, Les belles lettres, Paris 1980.
31- J.Boliver, Domestique et fonctionnaire sous le Haute- empire Romain, Paris 1974,P. 251.
32- M.Leglay, Saturne africain, Histoire, I Paris 1966, P. 482.
33- M.Benabou, La résistance africaine à la romanisation, op.cit., P.90.
34- Ph.Leveau, La fin du royaume maure et les origines de la province romaine de Mauritanie césarienne, B.A.C.T.H.S. Paris 1984, P. 312-321.
35- J. Gascou, (M.Ticinius Crassus Frugi, Légat de Claude en Mauritanie) dans mélange P.Boyaucée, Rome, 1974, P299-310.
36- I.L.Afri.634= ILM.116.
37-T.Kotula, op.cit., P. 64-71.
38- M.Christol et J.Gascou (Volubilis, Cité Fédérée ?) M.E.F.R.A. 92, 1981, P. 331.
39- Dion Cassius, LX,8,6.
40- J. Desanges, op.cit, P.121-122.
41- Dion Cassius, LX, 9,5.
42- R .Cagnat, L'armée d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs, Paris 2 édition, P.26.
43- Dion Cassius, LX, 24.
44- Pline, H.N,V, I, 14-16 et Dion Cassius, LX,9,1.
45-Dion Cassius, LX, 9,1-5.
46- J. Desanges, op.cit., P. 122.
47- Dion Cassius, LX,9.
48-Tacite, Histoire, I, 49. Suietone, Vie de Galba, 7-8.
49- M.Leglay, « Une dédicace à Vénus offerte à Caesaréa (Cherchal) par le future empereur Galba ». Mélanges J. Carcopino, 1966, P. 629-639.
50- M.benabou, La résistance africaine à la romanisation, op.cit., P.94-95.